عرض الكتب

اسم الكتاب: أصل الحضارات الأولى

المؤلف: أ. د. زيدان كفافي

الناشر: دار القوافل للنشر والتوزيع - الرياض.

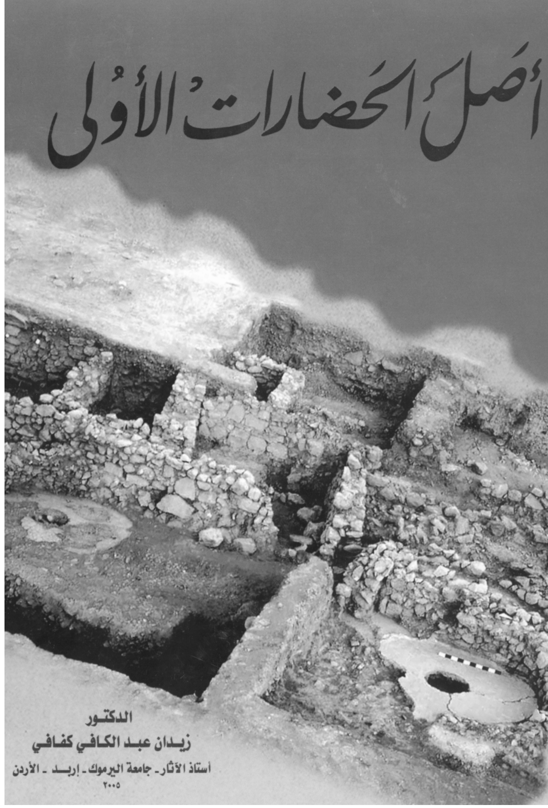
سنة النشر: ٢٠٠٥م.

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٩/٢٣٠٢

مقاس الكتاب: ١٧× ٢٤ سم.

عدد الصفحات: ٣٣٢ صفحة.

عرض: أ. د. سلطان محيسن.



أصدرت دار القوافل كتاباً جديداً في حقل الدراسات الآثارية والتاريخية القديمة تناول موضوعاً طالما شد اهتمام المعنيين بالإطلاع على نشوء الحضارة الإنسانية وتطورها منذ أقدم العصور. عالج هذا الموضوع باحث أكاديمي وميداني هو الأستاذ الدكتور زيدان كفافي؛ فقدم إنجازاً علمياً شديد الرصانة، وكبير الفائدة والمتعة.

يقع الكتاب في ٣٣٢ صفحة من القطع المتوسط، احتوى على مقدمة وأحد عشر فصلاً، إضافة إلى الخاتمة والمصادر والمراجع، كما زُوِّد بالصور والأشكال اللازمة.

بدأ الفصل الأول بتعريف لمفاهيم الثقافة والحضارة والمدنية، وهي مصطلحات كثيراً ما تتداخل مع بعضها بعضاً، حتى لدى المختصين. تناول الباحث فرضيات ظهور الحضارة وآلياتها، مقترحاً فرضيته الخاصة في هذا المجال، وهي تصف مسيرة التطور البشري منذ حوالي الألف العاشر ق.م، بدءاً بمجتمعات الزراعة والتدجين، إلى مجتمعات عصر العمران ونشوء الدول والمدن الأولى في الألف الثالث ق.م.

وهكذا، حدَّدَ الكاتب مفهوم كلمة الثقافة لدى الأنتروبولوجيين، وهو مفهوم واسع جداً، يتضمن دراسة كل ما يتعلق بنشاط الإنسان المادي والروحي. كما أتى على تاريخ البحث في الثقافة، منذ القرن التاسع عشر وحتى الوقت الراهن، مستعرضاً جهود باحثين كثيرين في هذا السياق، مثل: لينرلي وايت (L. White)، وليفي شتراوس (C. Lévi Strauss)، ثم تطرق إلى خصائص الثقافة، وما إذا كانت مكتسبة أم متوارثة، وأنواع الثقافة المادية والاجتماعية والفكرية والفنية. انتقل بعدها إلى الحديث عن مفهوم الحضارة، مستعرضاً الحضارات القديمة، من رافدية ومصرية وصينية وميزو-أمريكية، متناولاً أصول الحضارات ونظريات نشوئها. وأخيراً توقّف الباحث عند المدنية ومفهومها، حسب الزمان والمكان، ومواصفاتها حسب تصور مختلف الباحثين، منتهياً إلى تحديد الطرق والوسائل التي قادت المجتمعات القديمة إلى التمدن.

في الفصل الثاني يعرض المؤلف دور البيئة الجغرافية، وأثرها في ظهور الحضارة وتطورها، متناولاً مختلف البيئات الجغرافية في الشرق القديم والجزيرة العربية، ومؤكداً أهمية الموقع الجغرافي والخامات والخيرات الطبيعية في صنع

الحضارة، التي ظهرت في الشرق الأدنى القديم، قبل أية منطقة أخرى في العالم. كما بيّن الملامح البيئية لبلاد الشرق الأدنى القديم، سواء من حيث التضاريس والمناخ والنباتات والحيوانات، التي سادت في مختلف المناطق الساحلية والجبلية والصحراوية، التي دلت على تنوّع الواقع البيئي وتعدده. وساعد ذلك التنوع في تنشيط عملية التبادل والتواصل بين مختلف هذه المناطق، كما ساعدت الأنهار الكبرى على نشوء عمليات الزراعة والتجارة، ونهوض الحضارات الباكرة.

أما الفصل الثالث فقد استعرض البدايات الأولى للنشاط الإنساني، منذ عصر الصيد والالتقاط والتنقل، العصر الحجري القديم، الباليوليت، شارحاً ميزات هذا العصر، وأهم المكتشفات التي أتت من المواقع العائدة له، سواء من الناحية الأثرية أو من النواحي الأنتروبولوجية والبيئية القديمة، مع الحديث عن طبيعة العلاقات الاجتماعية البدائية الأولى لتلك المرحلة. كما تناول بداية الحياة الإنسانية منذ ظهور الإنسان لأول مرة، في القارة الأفريقية، في الزمن الجيولوجي الرابع، وتطوره عبر مختلف مراحل العصر الحجري القديم الأدنى ثم الأوسط فالأعلى بين نحو ٤،١ مليون سنة وحتى ١٢ ألف سنة ق.م.، وهو عصر تميّز بتطور تقني بطيء، دلت عليه بخاصة الأدوات الحجرية، وعاشت فيه المجتمعات الأولى وكان غذاؤها يقوم على الصيد والالتقاط. كما استعرض أهم شواهد الإنسان الأول – هوموأركتوس- الذي عاش في المشرق القديم، ووجدت أقدم آثاره في حوض الأردن وسواحل بلاد الشام، دون أن ينسى الباحث الإشارة إلى المخلفات البشرية الأولى في شبه الجزيرة العربية، منتهياً إلى تحديد الصفات العامة لمجتمعات الصيد والالتقاط وتنظيماتها الاجتماعية الأولى.

يتناول الفصل الرابع الخطوة المتقدمة، التي أنجزتها مجتمعات الشرق الأدنى القديم التي تمثلت بالمرحلة الانتقالية بين العصرين الحجريين القديم والوسيط، الميزوليت، الواقعة بين الألف الثاني عشر والألف الثامن ق.م، والتي دلت عليها مختلف المكتشفات في بلاد الشام وبلاد الرافدين والجزيرة العربية، حيث تحققت خطوات اقتصادية واجتماعية مهمة، مهدت الطريق لظهور المجتمعات الزراعية المستقرة فيما بعد.

كما تناول هذا الفصل المجتمعات التي تحوّلت نحو الاستقرار وإنتاج الطعام وعلى رأسها المجتمعات الكبارية والنطوفية، آتياً على نماذج من المواقع النطوفية في الشرق الأدنى القديم، وعلى رأسها موقع عين الملاحة شمالي غور الأردن، شارحاً أهم مكتشفات هذا الموقع في مجالي العمارة والفنون وغيرهما. كما تطرق الفصل إلى المجتمعات الانتقالية في بلاد الرافدين، التي تنتمي إلى ما يُعرف بالحضارة الزارزية، وعثر على آثارها الأولى في مواقع زارزي وزاوي جمي- شانيدار في شمال العراق. ثم عرض واقع هذا العصر في شبه الجزيرة العربية، كما قدم عرض زمانياً ومكانياً لمختلف التطورات التي حصلت في ذلك العصر الانتقالي، الذي تميز أيضاً بانتهاء عصر البليستوسين المناخي البارد، وبدء عصر الهولوسين الدافئ، الذي ساعد على التحوّل المهم الذي حدث فيما بعد.

وفي الفصل الخامس ناقش المؤلف موضوع الزراعة التي مارستها مجتمعات العصر الحجري الحديث النيوليت، منذ الألف الثامن ق.م. كما ناقش الدراسات التي تناولت ظاهرة الزراعة وتعريفها والنظريات المتعلقة بها، سواء كانت نظريات بيئية، أم اجتماعية، أم فكرية، أم ديموغرافية، أم اقتصادية، أم غيرها. مستعرضاً أصول الزراعة وأهم الشروط اللازمة لحصولها، من حيث المناخ والتربة والسكان، ليطرح أسئلة مهمة حول متى وأين نشأت الزراعة وكيف انتشرت؟ وليتساءل أيضاً عن العلاقة بين ممارسة الزراعة والتدجين. وهكذا تم عرض نظريات، والأصح أن نقول فرضيات، نشوء الزراعة وبينها نظرية الواحات، ونظرية الموطن النواة، ونظرية التقلبات المناخية، ثم نظرية الضغط السكاني فنظرية المناطق الهامشية، وهي كلها نظريات حاولت الإجابة على السؤال الأصعب، وهو: لماذا نشأت الزراعة وما هي الظروف والأسباب التي دفعت تلك المجتمعات إلى الانتقال من حياة التنقل والصيد والالتقاط إلى ممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات؟ منتهياً إلى تحديد العوامل المشتركة بين هذه النظريات، والتي أكدت كلها، وإن بدرجات متفاوتة، على دور البيئة والإنسان في نشوء الزراعة الأولى، بعد أن وضعت المجتمعات النطوفية في العصر السابق أسس هذا التحول الاقتصادي والاجتماعي الكبير، الذي حصل في المنطقة الواقعة بين حوض الفرات شمالاً (المريبط في سورية)،

وحوض الأردن جنوباً (أريحا في فلسطين).

في الفصل السادس انتقل الباحث للحديث عن المجتمعات الزراعية الأولى في بلاد الشرق الأدنى القديم، واستعرض الصفات العامة لتلك القرى، من حيث واقعها الاقتصادي والاجتماعي والعمراني، وفنونها ومعتقداتها، مستشهداً بأهم المواقع، العائدة إلى الألفين الثامن والسابع ق. م، من بلاد الشام، حتى بلاد الأناضول ومنطقة زاغروس في العراق وإيران. وحدد صفات القرية الزراعية الأولى، من حيث بنائها وسكانها ومصادر عيشها وأدواتها وفنونها، وذلك حسب مراحل زمنية متتالية، بدءاً من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)، ثم العصر الحجري الحديث الفخاري. ويستند الفصل إلى مواقع أثرية مهمة نسبت إليها حضارات هذا العصر النيوليتي، مثل: الحضارتين الخيامية والسلطانية، اللتين عاشتا في عصر النيوليت ما قبل الفخار (أ)، وما تلا من آثار حضارات عصر النيوليت ما قبل الفخار ب، التي أتت من مواقع عديدة، مثل: عين غزال في الأردن، مع التعرض لمواقع أخرى، مثل: تشايو ونيفالي- تشوري وغوبكلي في الأناضول، التي أتت منها مكتشفات كبيرة الأهمية، أضاءت الكثير من جوانب حياة سكان هذا العصر.

وثمة حديث عن القرى الزراعية الأولى في منطقة زاغروس، في العراق وإيران، التي دلت عليها مواقع مثل كرمز-ديرة ونمريك، ثم قرية جارمو ذات البنى الاقتصادية والاجتماعية المتطورة في شمال العراق. وانتهى الفصل بالإشارة إلى المواقع الإيرانية المعاصرة، مثل: جانجي دارة وعلى كوش، ليخلص إلى ملاحظات عامة حول الموضوع مشيراً إلى أن الاستقرار، قد سبق ،عموماً ،الزراعة التي سبقت بدورها تدجين الحيوان، ورافق ذلك تطور معماري وفني واجتماعي كبير تزامن مع تحسن مناخي واضح.

تناول الفصل السابع القرى الزراعية المتطورة في بلاد الشرق الأدنى بدءاً من الألف السادس ق.م.، ويطلق الكاتب على هذه القرى تسمية "البلدات الأولى في بلاد الشرق الأدنى"، موسعاً دائرة البحث في صفات هذه البلدات من بلاد الشام والأناضول والرافدين إلى الجزيرة العربية ومصر، وعارضاً للميزات العمرانية والفنية والتقنية لهذه البلدات، على امتداد تلك المرحلة التي تمثل عصر النيوليت الفخاري والعصر الحجري النحاسي، بين حوالي الألف السادس والألف الرابع ق.م، التي وضعت أسس المجتمعات اللاحقة الأكثر تطوراً على كل صعيد.

في هذا العصر يلاحظ الكاتب تباين وتيرة التطور بين شمال الشرق الأدنى القديم وجنوبه، كما دلت عليها المخلفات الأثرية، وعلى رأسها العمارة والأواني الفخارية والفنون، إضافة إلى الممارسات الزراعية، وتربية الحيوانات، وانتهاءً بالمعتقدات والفنون وعادات الدفن مستشهداً بمواقع متميزة، مثل: بئر السبع في صحراء النقب، وأبو حامد في غور الأردن، وتليلات الغسول قرب البحر الميت. وكلها مواقع دلت على ظهور بلدات ذات مخططات مسبقة التصميم، مارست مهناً يدوية متطورة وعقائد جديدة، كما أنها عرفت بدايات التعدين واستخراج النحاس. كما يتناول الفصل ظهور المجتمعات الرعوية الأولى في مناطق البادية، ثم يعرّج على المواقع الأناضولية المعاصرة، مثل: شاتال هويوك، والمواقع الرافدية العائدة لحضارتي سامراء وحسونة وما تلاهما من حضارات عصري حلف والعبيد، لينتهي إلى الحضارات الجزرية والعمرية وحضارة نقادا في مصر، وحضارات شبه الجزيرة العربية واليمن.

يدرس المؤلف في الفصل الثامن مرحلة مفصلية أخرى في تاريخ الشرق الأدنى القديم، تميزت بنشوء المجتمعات المتمدنة "المجتمع المدني"، منذ الألف الرابع ق.م.، ويسهب في شرح عملية ظهور المجتمعات المركبة (Complex society)، مستشهداً بنماذج من بلاد الرافدين وبلاد الشام مشيراً إلى ظاهرة التحول الكبير الذي تميز بظهور الكتابة التصويرية في نهاية الألف الرابع التي تطورت إلى كتابة مقطعية ثم أبجدية، فيما بعد، واضعة الحد الفاصل بين مجتمعات ما قبل التاريخ، والمجتمعات التاريخية القديمة.

ويؤكد الكاتب على أهمية فائض الإنتاج، في الوصول إلى مرحلة المدينة ودور التجارة في هذه العملية، التي قادت إلى نشوء المدينة التي تميزت بكثافة سكانية وتنظيم اجتماعي، ووجود القوانين والأنشطة، التي تقدّم الخدمات العامة، وذلك من خلال استعراض نماذج لهذه المدن الباكرة، مثل: مدينة الوركاء في جنوب العراق، وجاوا في الأردن، وحبوبة الكبيرة

في سورية، وهي مدن كان للمعبد، ومن ثم للكاهن فيها دور قيادي واضح، في إدارة أنشطتها الاقتصادية والسياسية والدينية، وما تطلب ذلك من جمع الإنتاج وتوزيعه على السكان، واستدعى كذلك تدوين كل تلك الأنشطة فظهرت؛ بذلك الكتابة بعد أن تراكمت الخيرات والمعارف عبر العصور. ويختم الكاتب الفصل بجدول يظهر مراحل تطور هذه الكتابة، عبر العصور.

يتحدث الفصل التاسع من الكتاب عن البنى السكانية والاقتصادية والاجتماعية المتطورةأن التي قادت إلى ظهور أول الدول في بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر. وهكذا أصبحنا أمام مؤسسات منظّمة، تقف على رأسها سلطة واضحة المعالم والصلاحيات، مما يدل على تبلور مظاهر الدولة التي توافرت لها القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإدارية، يقودها حاكم يتمتع بسلطة زمنية ودينية كبيرة.

وهنا يبرز دور المعبد والقصر وتكاملهما في القيادة والإدارة. هذه المرحلة المسماة "دولة المدينة" (City-State) بدأت في النصف الأول للألف الثالث ق.م، عصر الأسرات الأولى، جسّدتها مدن، مثل: أور والخفاجية في العراق، وإبلا في سورية، ومواقع الغسول وبئر السبع في جنوب بلاد الشام. ويشير الباحث إلى نشوء الدولة الأولى في وادي النيل، وإلى عملية توحيد مصر العليا والدنيا تحت إمرة حاكم واحد، وهي مرحلة هيئت للحديث لأول مرة عن "الدولة الوطنية" (National State)، وما ارتبط بها من ملوك حكموا الدول السومرية والآكادية والمصرية التي نشأت في الشرق القديم، ودلت عليها المكتشفات الأثرية والكتابية الغزيرة.

الفصل العاشر في الكتاب يدرس مختلف العوامل التي أدت إلى هذا التحول الاقتصادي والسياسي الكبير، سواء كانت مياه، أم مصادر غذاء، أم مواد خام، أم مناخ، أم غير ذلك. ويستعرض الباحث هنا مختلف النماذج للتغيرات الاجتماعية، التي سبقت نشوء الدولة وانتقالها من مرحلة مجتمع المساواة إلى مجتمع الرُّتب، ثم المجتمع المدرّج اجتماعياً، وصولاً إلى مجتمع الدولة، أو مجتمع العصبة، ثم القبيلة ثم المشيخة فالدولة، رابطاً بين الدراسات الأثرية والاجتماعية، التي تتكامل في إيضاح صورة المرحلة المدروسة.

أخيراً يتحدث الفصل الحادي عشر عن المظاهر العامة في نشوء الحضارات، والتي تجلت من خلال التغيرات الديموغرافية، وازدياد عدد الناس، إلى ممارسة الزراعة، ثم دور الحروب والمرأة، وأهمية التخصص، وتوزيع الثروات بين مختلف أفراد المجتمع المنظم على كل المستويات، وهي مظاهر قابلة للنقاش على أكثر من صعيد. وهكذا خلص الكتاب إلى نتائج عامة حول نشوء الحضارات الأولى وتطورها عبر آلاف السنين، أبرز فيها دور مختلف العوامل في هذا التطور، منذ بواكيره الأولى في العصر الحجري القديم، مروراً بمرحلة العصر الحجري الحديث وعصر العمران، وانتهاءً بنشوء الدولة الأولى في الألف الثالث ق.م.

لقد أتى الكتاب بحثاً غنياً وموثّقاً ليس فقط في علم الآثار والتاريخ القديم، وإنما أيضاً في الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع، واستند إلى أبحاث شخصية ومراجع حديثة، وهو يعكس منهجا أصيلاً وأفكاراً جديدة ورؤية خاصة ,شاملة وإنسانية في فهم الحضارة بعيداً عن التعصب والتقوقع. ولن تقلل من أهمية هذا الكتاب الملاحظات التي من الطبيعي أن تحصل في أي عمل علمي جاد، كالتبسيط في تفسير بعض التحولات الحضارية الكبرى، مثل: نشوء الزراعة، وظهور المدينة، ومعرفة الكتابة، وبعض من عدم الوضوح في تحديد آلية التطور الحضاري، وهناك شيء من التشوش الذي وقع فيه المؤلف في عرض المراحل الباكرة، وبخاصة العصر الحجري القديم، وتركيزه الأكبر على مكتشفات ومعطيات أتت من الأردن مع القليل من الاهتمام بمكتشفات مهمة أتت من بقية بلدان المشرق العربي القديم. وهناك بعض الهنات التي وردت في متن الكتاب وفي الأشكال، والتي يمكن أن يلحظها القارئ بسهولة.

كتاب الأستاذ الدكتور زيدان كفافي مرجع جديد وأصيل لقراء العربية، أنتجه باحث عُرف بالخبرة الميدانية والمكتبية، وهو أستاذ جامعي معروف، وقد أهدى المؤلف هذا الكتاب إلى "روح الآثاري الأخ والصديق الدكتور مجاهد شوكت المحيسن".

أ. د. سلطان محيسن: قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة دمشق - دمشق - الجمهورية العربية السورية.